



3 أغسطس 2019
كتب: أ. د. عبدالرحمن البر

لحمد لله رب العالمين والصلاة والسلام على خاتم النبيين سيدنا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين..

وبعد.. أيها الأخ المسلم الكريم؛ فما هي أيام العشر الأول من ذي الحجة، أيام الخير والبركة تهل علينا حاملة بشائر الأجر ونسائم الفضل، يستعد لها الموفقون، ويسعد بها الطائعون، ويطمع في بركتها الصالحون، فأين أنت في هذه الأيام العشر المباركة؟ وماذا أعددت لاستقبالها واغتنامها والتزود فيها؟

فضيلة هذه الأيام

أخرج البخاري وأبو داود والترمذي وغيرهم عن ابن عباس رضي الله عنه قال: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: "مَا مِنْ أَيَّامٍ الْعَمَلُ الصَّالِحُ فِيهِنَّ أَحَبُّ إِلَى اللَّهِ مِنْ هَذِهِ الْأَيَّامِ الْعَشْرِ" فَقَالُوا: يَا رَسُولَ اللَّهِ، وَلَا الْجِهَادُ فِي سَبِيلِ اللَّهِ؟ فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: "وَلَا الْجِهَادُ فِي سَبِيلِ اللَّهِ، إِلَّا رَجُلٌ حَرَجَ بِتَفْسِيهِ وَمَالِهِ فَلَمْ يَرْجِعْ مِنْ ذَلِكَ بِشَيْءٍ".

في رواية عند الطبراني في الكبير: "مَا مِنْ أَيَّامٍ يُتَقَرَّبُ إِلَى اللَّهِ فِيهَا يَعْمَلُ أَحْضَرُ مِنْ هَذِهِ الْأَيَّامِ الْعَشْرِ".

في رواية عند الدارمي: "مَا مِنْ عَمَلٍ أَرْكَى عِنْدَ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ وَلَا أَعْظَمَ أَجْرًا مِنْ خَيْرِ تَعْمَلُهُ فِي عَشْرِ الْأَضْحَى".

وأخرج الطيالسي عن عبد الله بن عمرو رضي الله عنه قال: حضرت رسول الله صلى الله عليه وسلم وذكر عنده أيام العشر فقال: "مَا مِنْ أَيَّامٍ أَحَبُّ إِلَى اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ الْعَمَلُ فِيهِ مِنْ عَشْرِ ذِي الْحِجَّةِ".

ذلك بعض ما أشار إليه حبيبنا المصطفى صلى الله عليه وسلم من فضيلة هذه الأيام، ولما كان الصحابة رضي الله عنهم قد استقر عندهم أن الجهاد ذروة سنام الإسلام وأعظم الأعمال، فقد سألوا النبي صلى الله عليه وسلم عن العمل الصالح في هذه الأيام هل يسبق في الأجر والدرجة تلك الفريضة الكريمة السامية؟ فبين النبي صلى الله عليه وسلم أن الجهاد لا يسبق العمل الصالح في هذه الأيام إلا في حالة واحدة، وهي أن يخرج المجاهد مخاطراً بماله ونفسه فينال الشهادة ويفقد المال ولا يرجع بشيء، وقد أخرج أحمد وغيره من طرق يقوي بعضها بعضاً عن عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عَمْرٍو رضي الله عنه قَالَ: كُنْتُ عِنْدَ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَدُكِرَتْ الْأَعْمَالُ فَقَالَ: "مَا مِنْ أَيَّامٍ الْعَمَلُ فِيهِنَّ أَحْضَرُ مِنْ هَذِهِ الْعَشْرِ" قَالُوا: يَا رَسُولَ اللَّهِ، وَلَا الْجِهَادُ؟ قَالَ: فَكَتَبْتُهُ، قَالَ "وَلَا الْجِهَادُ إِلَّا أَنْ يَخْرُجَ رَجُلٌ بِتَفْسِيهِ وَمَالِهِ فِي سَبِيلِ اللَّهِ ثُمَّ تَكُونُ مُهْجَةً تَفْسِيهِ فِيهِ".

وأخرج ابن حبان عن جابر رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "مَا مِنْ أَيَّامٍ أَحْضَرُ عِنْدَ اللَّهِ مِنْ أَيَّامِ عَشْرِ ذِي الْحِجَّةِ"، قال: فقال رجل: يا رسول الله، هُنَّ أَحْضَرُ أَمْ عَدَّتْهُنَّ جِهَادًا فِي سَبِيلِ اللَّهِ؟ قال: "هُنَّ أَحْضَرُ مِنْ عَدَّتْهُنَّ جِهَادًا فِي سَبِيلِ اللَّهِ..." الحديث.

قال ابن رجب في فتح الباري: "هذا الحديث نص في أن العمل المفضول يصير فاضلاً إذا وقع في زمان فاضل، حتى يصير أفضل من غيره من الأعمال الفاضلة؛ لفضل زمانه، وفي أن العمل في عشر ذي الحجة أفضل من جميع الأعمال الفاضلة في غيره. ولا يستثنى من ذلك سوى أفضل أنواع الجهاد، وهو أن يخرج الرجل بنفسه وماله، ثم لا يرجع منهما بشيء.

قد سئل صلى الله عليه وسلم: أي الجهاد أفضل؟ قال: "مَنْ عَقَرَ جَوَادُهُ، وَأَهْرَبِقَ دَمُهُ".

يسمع رجلاً يقول: اللَّهُمَّ اعطني أفضل ما تعطي عبادك الصالحين، فقال له: "إِذَا دَخَلَ يَعْقُرُ جَوَادَكَ، وَتَشْتَشْهُدُ".

فهذا الجهاد بخصوصه يفضل على العمل في العشر، وأما سائر أنواع الجهاد مع سائر الأعمال، فإن العمل في عشر ذي الحجة أفضل منها. انتهى كلام ابن رجب.

ومن ثم اجتهد الموفقون في صالح الأعمال في هذه الأيام، وَكَانَ سَعِيدُ بْنُ جُبَيْرٍ- راوي الحديث عن ابن عباس- إِذَا دَخَلَ أَيَّامَ الْعَشْرِ اجْتَهَدَ اجْتِهَادًا سَدِيدًا حَتَّى مَا يَكَادُ يَقْدِرُ عَلَيْهِ (أخرجه الدارمي).

كان يدعو إلى عدم إطفاء السُّج، كناية عن طول القيام وكثرة الأعمال الصالحة في هذه الأيام المباركة.

فأين أنت من هذا الخير العظيم؟!

(1) أين أنت من التعرض لنفحات رحمة الله في أيام العشر؟

أخرج الطبراني في الكبير وفي الدعاء، والبيهقي في الشعب وفي الأسماء والصفات، وأبو نعيم في معرفة الصحابة، والقضاعي في مسند الشهاب عن أنس بن مالك رضي الله عنه قال: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: "افْعَلُوا (وفي رواية: اطلبوا) الْخَيْرَ دَهْرَكُمْ (زاد في رواية: كله)، وَتَعَرَّضُوا لِنَفْحَاتِ رَحْمَةِ اللَّهِ، فَإِنَّ لِلَّهِ نَفْحَاتٍ مِنْ رَحْمَتِهِ يُصِيبُ بِهَا مَنْ يَسْأَلُ مِنْ عِبَادِهِ، وَسَلُوا اللَّهَ أَنْ يَسْتُرَ عَوْرَاتِكُمْ، وَأَنْ يُؤَمِّنَ رُوعَاتِكُمْ".

الهيثمي في المجمع: رواه الطبراني وإسناده رجاله رجال الصحيح غير عيسى بن موسى بن إياس بن البكير وهو ثقة.

وأخرجه الطبراني في الدعاء والبيهقي في الشعب وابن أبي الدنيا في (الفرج بعد الشدة) عن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: "اطلبوا الْخَيْرَ دَهْرَكُمْ كُلَّهُ" فذكره بمثله.

وأخرج الطبراني في الكبير وفي الأوسط عن مُحَمَّدِ بْنِ مَسْلَمَةَ الْأَنْصَارِيِّ رضي الله عنه قال: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: "إِنَّ لِرَبِّكُمْ فِي أَيَّامِ دَهْرِكُمْ نَفْحَاتٍ، فَتَعَرَّضُوا لَهُ، لَعَلَّه أَنْ يُصِيبَكُمْ نَفْحَةٌ مِنْهَا، فَلَا تَسْقَوْنَ بَعْدَهَا أَبَدًا".

نال الهيثمي في المجمع: وفيه من لم أعرفهم ومن عرفتهم وتُفوا.

أخرج الدولابي في الكنى والأسماء نحو ذلك عن ابن عمر رضي الله عنه.

وأخرج الرامهرمزي في المحدث الفاصل عن محمد بن سعيد قال: لما مات محمد بن مسلمة الأنصاري، وجدنا في ذؤابة سيفه كتابًا: بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ، سَمِعْتُ النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَقُولُ: "إِنَّ لِرَبِّكُمْ فِي بَقِيَّةِ دَهْرِكُمْ نَفْحَاتٍ، فَتَعَرَّضُوا لَهُ، لَعَلَّ دَعْوَةَ أَنْ تُوَافِقَ رَحْمَةً يَسْعُدُ بِهَا صَاحِبُهَا سَعَادَةً لَا يَحْسُرُ بَعْدَهَا أَبَدًا".

والتعرض لنفحات رحمة الله يكون بكثرة الدعاء والسؤال في هذه الأوقات الفاضلة باعتبارها أوقات إجابة وتفضل من الله تعالى، فهل تحرص أيها الأخ الحبيب على ورد من الدعاء فيها؟

وهل تحرص على أن تجعل لدعوتك وإخوانك ولأمتك نصيبًا موفورًا من الدعوات المباركة في هذه الأيام؟ وهل تخص بمزيد من صادق الدعوات إخوانك المجاهدين أهل الرباط في فلسطين وغيرها من ديار الإسلام؟ أسأل الله أن يوفقنا وإياك لما يرضيه، وأن يستر عوراتنا ويؤمن روعاتنا وينصر مجاهديننا، إنه على كل شيء قدير.

(2) أين أنت من التوبة النصوح في الأيام العشر؟

فهذه أيام يقبل الله فيها على خلقه، ويقبل التوبة ممن تاب، فهل تكون مع أولياء الرحمن المؤمنين الذين استجابوا لنداء الله ﴿وَتُوبُوا إِلَى اللَّهِ جَمِيعًا أَيُّهَا الْمُؤْمِنُونَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ (النور: من الآية 31) ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا تُوبُوا إِلَى اللَّهِ تَوْبَةً نَصُوحًا﴾ (التحریم: من الآية 8).

ها هو الحق سبحانه ينادي على المذنب الذي ينس من رحمته ﴿إِنَّهُ لَا يَتَسَبَّحُ مِنْ رُوحِ اللَّهِ إِلَّا الْقَوْمُ الْكَافِرُونَ﴾ (يوسف: من الآية 87).

ويقول لمن قنط من رحمة ربه ﴿وَمَنْ يَقْنَطْ مِنْ رَحْمَةِ رَبِّهِ إِلَّا الصَّالُونَ﴾ (الحجر: من الآية 56).

يقول للذي ملأت الذنوب حياته، وشغلت الشهوات أيامه، وغرق فيها عرفا إلى أذنيه: "لَوْ أَتَيْتَنِي بِقُرَابِ الْأَرْضِ حَطَابًا ثُمَّ لَقَيْتَنِي لَا تُشْرِكُ بِي شَيْئًا لَأَتَيْتَكَ بِقُرَابِهَا مَغْفِرَةً".

فلنبادر إلى اغتنام نفحات رحمة الله في هذه الليالي والأيام المباركة، بدءًا بالاصطلاح مع الله والتوبة الصادقة إليه، والله يتولى توفيقنا جميعًا لما يحب ويرضى.

(3) أين أنت من الذكر في أيام العشر؟

أخرج أحمد وأبو عوانة وأبو نعيم في الحلية عن ابن عمر رضي الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم قال: "مَا مِنْ أَيَّامٍ أَعْظَمُ عِنْدَ اللَّهِ وَلَا أَحَبُّ إِلَيْهِ مِنْ الْعَمَلِ فِيهِنَّ مِنْ هَذِهِ الْأَيَّامِ الْعَشْرِ، فَأَكْثِرُوا فِيهِنَّ مِنَ التَّهْلِيلِ وَالتَّكْبِيرِ وَالتَّحْمِيدِ". وهو حديث حسن بمجموع طرقه.

وأخرج البيهقي في الشعب نحوه عن ابن عباس رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "مَا مِنْ أَيَّامٍ أَفْضَلُ عِنْدَ اللَّهِ وَلَا الْعَمَلُ فِيهِنَّ أَحَبُّ إِلَى اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ مِنْ هَذِهِ الْأَيَّامِ الْعَشْرِ، فَأَكْثِرُوا فِيهِنَّ مِنَ التَّهْلِيلِ وَالتَّكْبِيرِ، فَإِنَّهَا أَيَّامُ التَّهْلِيلِ وَالتَّكْبِيرِ وَذِكْرِ اللَّهِ، وَإِنْ صِيَامَ يَوْمٍ مِنْهَا بَعْدَ صِيَامِ سَنَةٍ، وَالْعَمَلُ فِيهِنَّ بِضَاعَفَ سَبْعِمِائَةٍ ضِعْفٍ".

قال البخاري: وَكَانَ ابْنُ عُمَرَ وَأَبُو هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا يَحْرُجَانِ إِلَى الشُّوقِ فِي أَيَّامِ الْعَشْرِ بُكْرَانًا، وَيُكَبِّرُ النَّاسُ يَتَكَبَّرُ هَمَا، وَكَثُرَ مُحَمَّدُ بْنُ عَلِيٍّ حَلَفَ التَّائِلَةَ.

وهؤلاء الصحابة رضي الله عنهم إنما يفعلون ذلك امتثالًا لقوله تعالى ﴿لِتُكَبِّرُوا اللَّهَ عَلَى مَا هَدَاكُمْ وَتَشْكُرُوا الْمُحْسِنِينَ﴾ (الحج: من الآية 37).

يلتكثر من التكبير والتهليل والتحميد والذكر، وبخاصة أذكار الصباح والمساء والأحوال المختلفة، وفي أديار الصلوات.

(4) أين أنت من الصيام في أيام العشر؟

الصيام من أفضل الأعمال التي ندب إليها الإسلام وحض عليها، فقد أخرج الشيخان عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه قال: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: "مَا مِنْ عِبَادٍ يَصُومُونَ يَوْمًا فِي سَبِيلِ اللَّهِ إِلَّا بَاعَدَ اللَّهُ بِذَلِكَ الْيَوْمِ وَجْهَهُ عَنِ النَّارِ سَبْعِينَ حَرِيْقًا".

وأفضل ما يكون صيام النوافل في الأيام الفاضلة المباركة، وأعلىها فضلاً وأكملها أجراً هذه الأيام العشر المباركة، ومن ثمَّ كان صيامها من أفضل الأعمال، وحديث ابن عباس رضي الله عنه في فضل الأيام العشر أورده الأئمة تحت عنوان (باب فضل صيام العشر) وقال ابن حجر في فتح الباري: "استُئذِنَ به عَلَى فَضْلِ صِيَامِ عَشْرِ ذِي الْحِجَّةِ لِإِدْرَاجِ الصَّوْمِ فِي الْعَمَلِ، وَاسْتَشْكَلَ يَتَحَرِّمُ الصَّوْمَ يَوْمَ الْعِيدِ، وَأَجِيبَ يَأْتُهُ مَحْمُولٌ عَلَى الْغَالِبِ".

أما الحديث الذي أخرجه مسلم وغيره عن عائشة رضي الله عنها قالت: مَا رَأَيْتُ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ صَائِمًا فِي الْعَشْرِ قَطُّ.

فقد قال النووي في شرح مسلم: "قَالَ الْعُلَمَاءُ: هَذَا الْحَدِيثُ مِمَّا يُؤَيِّدُ كَرَاهَةَ صَوْمِ الْعَشْرِ، وَالْمُرَادُ بِالْعَشْرِ هُنَا: الْأَيَّامُ التَّاسِعَةُ مِنْ أَوَّلِ ذِي الْحِجَّةِ، قَالُوا: وَهَذَا مِمَّا يُتَأَوَّلُ فَلَيْسَ فِي صَوْمِ هَذِهِ التَّاسِعَةِ كَرَاهَةٌ، بَلْ هِيَ مُسْتَحَبَّةٌ اسْتِحْبَابًا شَدِيدًا لَا سِيَّامًا التَّاسِعِ مِنْهَا، وَهُوَ يَوْمَ عَرَفَةَ... فَيَتَأَوَّلُ قَوْلَهَا: لَمْ يَصُمْ الْعَشْرُ، أَنَّهُ لَمْ يَصُمْ لِعَارِضٍ مَرَضٍ أَوْ سَفَرٍ أَوْ غَيْرِهِمَا، أَوْ أَنَّهَا لَمْ تَرَهُ صَائِمًا فِيهِ، وَلَا يَلْزَمُ عَنْ ذَلِكَ عَدَمُ صِيَامِهِ فِي نَفْسِ الْأَمْرِ، وَيَدُلُّ عَلَى هَذَا التَّأْوِيلِ حَدِيثُ هُبَيْدَةَ بْنِ خَالِدٍ عَنْ إِمْرَأَتِهِ عَنْ بَعْضِ أَرْوَاحِ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَتْ: كَانَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَصُومُ تِسْعَ ذِي الْحِجَّةِ، وَيَتُومُ عَاشُورَاءَ، وَثَلَاثَةَ أَيَّامٍ مِنْ كُلِّ شَهْرٍ: الْإِثْنَيْنِ مِنَ الشَّهْرِ وَالْحَمِيسِ وَرَوَاهُ أَبُو دَاوُدَ وَهَذَا لَفْظُهُ وَأَحْمَدُ وَالنَّسَائِيُّ وَفِي رِوَايَتِهِمَا (وَحَمِيسَيْنِ). وَاللَّهُ أَعْلَمُ".

وزاد ابن حجر تأويلاً آخر لحديث عائشة، وهو "اِحْتِمَالٌ أَنْ يَكُونَ ذَلِكَ لِكَوْنِهِ كَانَ يَتْرُكُ الْعَمَلَ وَهُوَ يُحِبُّ أَنْ يَعْمَلَ حَسْبَهُ أَنْ يُفْرَضَ عَلَيْهِ، كَمَا رَوَاهُ الصَّحِيحَانِ مِنْ حَدِيثِ عَائِشَةَ أَيْضًا".

ويؤيد فضيلة صيام هذه الأيام ما أخرجه الترمذي وابن ماجه بسند فيه ضعف عن أَبِي هُرَيْرَةَ رضي الله عنه عن النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ: "مَا مِنْ أَيَّامٍ أَحَبُّ إِلَى اللَّهِ أَنْ يُتَعَبَّدَ لَهُ فِيهَا مِنْ عَشْرِ ذِي الْحِجَّةِ، يَعْدِلُ صِيَامُ كُلِّ يَوْمٍ مِنْهَا بِصِيَامِ سِتَّةٍ، وَفِيَامُ كُلِّ لَيْلَةٍ مِنْهَا بِفِيَامِ لَيْلَةِ الْقَدْرِ".

قال ابن حجر: "وَالَّذِي يَطْهَرُ أَنَّ السَّبَبَ فِي إِمْتِيَارِ عَشْرِ ذِي الْحِجَّةِ لِمَكَانِ إِجْتِمَاعِ أُمَّهَاتِ الْعِبَادَةِ فِيهِ، وَهِيَ الصَّلَاةُ وَالصِّيَامُ وَالصَّدَقَةُ وَالْحَجُّ، وَلَا يَتَأَنَّى ذَلِكَ فِي غَيْرِهِ".

(5) أين أنت من قيام الليل في أيام العشر؟

قول الصالحون: دقائق الليل عالية، فلا ترخصوها بالغفلة. وأعلى ما تكون دقائق الليل في الأيام والليالي الفاضلة.

في هذه الأيام والليالي المباركة بنادي رب العزة المتأخرين ليتقدموا، والمقصرين لينشطوا، ومن فاتته الحسنات فيما مضى ليدرك نفسه ويعوض خسارته في هذه الأيام بقيام الليل، «وَمِنَ اللَّيْلِ فَتَهَجَّدْ بِهِ نَافِلَةً لَكَ عَسَى أَنْ يَبْعَثَكَ رَبُّكَ مَقَامًا مَحْمُودًا (79)﴾ (الإسراء) «بِأَيُّهَا الْمُرْمَلُ (1) فَمِ اللَّيْلِ إِلَّا قَلِيلًا (2) نِصْفَهُ أَوْ انْقُصْ مِنْهُ قَلِيلًا (3) أَوْ زِدْ عَلَيْهِ وَرَتِّلِ الْقُرْآنَ تَرْتِيلًا (4)﴾ (المزمل) «إِنَّ رَبَّكَ يَعْلَمُ أَنَّكَ تَقُومُ أَدْنَى مِنْ ثُلُثِي اللَّيْلِ وَنِصْفَهُ وَثُلُثَهُ وَطَائِفَهُ مِنَ الَّذِينَ مَكَرَ» (المزمل: من الآية 20)، فهل تحب أن تكون مع الطائفة التي مع رسول الله صلى الله عليه وسلم؟

هل تحب أن تدخل في هذه الآية التي حُتِمت بالمغفرة والرحمة؟

كلما أوغلت في الليل كان القيام بين يدي الله ألدَّ لك، حيث يترُّلُ رُبُّنَا تَبَارَكَ وَتَعَالَى إِلَى السَّمَاءِ الدُّنْيَا جِبْنَ يَبْقَى ثُلُثُ اللَّيْلِ الْآخِرُ يَقُولُ: "مَنْ يَدْعُونِي قَاسْتَجِيبُ لَهُ؟ مَنْ يَسْأَلُنِي فَأُعْطِيَهُ؟ مَنْ يَسْتَعْفِرُنِي فَأَعْفِرَ لَهُ؟" (أخرجه الشيخان).

نا وجدت قدميك خفيفتين إلى صلاة الليل؛ فاعلم أن هذه علامة حب الله لك، إذ لولا أنه يحبك لما جعلك أهلاً لمناجاته.

أخرج ابن ماجه عن أَبِي هُرَيْرَةَ رضي الله عنه عن النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: "مَا تَوَطَّنَ رَجُلٌ مُسْلِمٌ الْمَسَاجِدَ لِلصَّلَاةِ وَالذِّكْرِ إِلَّا تَبَسَّسَ اللَّهُ لَهُ كَمَا يَتَبَسَّسُنُ أَهْلُ الْغَائِبِ بِغَائِبِهِمْ إِذَا قَدِمَ عَلَيْهِمْ".

الله ينتظرك في شوق، وبلقائك بحب، فأين أنت؟!

أ رجال الليل جدوا رب داع لا يرد

لا يقوم الليل إلا من له عزم وجد

ليكن لنا نصيب موفور من هذا الخير في هذه الأيام المباركة. ولا بأس أن يجتمع الناس لقيام الليل في جماعة، تشجيعاً للخامل وتنشيطاً للكسول.

هنا أجد من المناسب بيان حكم صلاة النوافل عموماً في غير رمضان في جماعة ليلاً أو نهاراً، في المساجد أو في غيرها:

الأصل في النوافل أن يصليها العبد منفرداً، وأن يصليها أو يصلي أكثرها في البيت، وقد كان هذا أكثر فعل النبي صلى الله عليه وسلم، لكن لا مانع شرعاً عند جمهور العلماء أن يصليها في جماعة، مثلما يحدث في قيام رمضان، وقد أخرج الشيخان قصة مبيت ابن عباس رضي الله عنه عند خالته ميمونة رضي الله عنها، زوج النبي صلى الله عليه وسلم وصلاته خلف النبي صلى الله عليه وسلم تلك الليلة، وقد كان ذلك تطوعاً، كما جاء صريحاً في رواية عند مسلم عن عطاء بن أبي رباح، عن ابن عباس رضي الله عنه قال: بِيْتُ ذَاتِ لَيْلَةٍ عِنْدَ خَالَتِي مَيْمُونَةَ، فَقَامَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يُصَلِّي مُتَطَوِّعًا مِنَ اللَّيْلِ، فَقَامَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إِلَى الْفِرْبَةِ فَتَوَضَّأَ، فَقَامَ فَصَلَّى، فَقُمْتُ لَمَّا رَأَيْتُهُ صَعَّ ذَلِكَ فَتَوَضَّأْتُ مِنَ الْفِرْبَةِ، ثُمَّ قُمْتُ إِلَى نِصْفِهِ الْأَيْسَرِ، فَأَحَذَ يَدَيَّ مِنْ وَرَاءِ ظَهْرِهِ يَعْذِلُنِي كَذَلِكَ مِنْ وَرَاءِ ظَهْرِهِ إِلَى الشَّقِّ الْأَيْمَنِ.

ثُلْتُ: أَيْ النَّطْوُوعُ كَانَ ذَلِكَ؟ قَالَ: تَعَمُّ.

في الموطأ سئل الإمام مالك عن الرجل يؤم الرجل في النافلة؟ فقال: ما أرى بذلك بأساً.

قال مالك: لا بأس أن يصلي القوم جماعة النافلة في نهار أو ليل. قال: وكذلك الرجل يجمع الصلاة النافلة بأهل بيته وغيرهم لا بأس بذلك.

خالف في ذلك أصحاب الرأي، فكروهوا أن يصلي الناس التطوع في جماعة في غير رمضان، وصلاة الكسوف.

وهذا الحديث المذكور حجة عليهم، ففيه التصريح بأن صلاة ابن عباس رضي الله عنه خلف النبي صلى الله عليه وسلم كانت تطوعاً، وهناك أحاديث أخرى في ذلك، منها حديث أنس بن مالك رضي الله عنه عند الشيخين أن جَدَّتَهُ مُلَيْكَةَ دَعَتْ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لِطَعَامٍ صَنَعَتْهُ لَهُ، فَأَكَلَ مِنْهُ، ثُمَّ قَالَ: "فُوْمُوا فَلَاصِلَ لَكُمْ" قَالَ آنس: فُقُمْتُ إِلَى حَصِيرٍ لَنَا قَدْ أُسُوْدٌ مِنْ طَوْلٍ مَا لَيْسَ فَتَصَحُّتُهُ بِمَاءٍ، فَقَامَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ،

وَصَفَّقْتُ وَالتَّيْمَ وَرَاءَهُ، وَالْعَجُوزُ مِنْ وَرَائِنَا، قَصَلَى لَنَا رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ رَكَعَتَيْنِ ثُمَّ انْصَرَفَ.

ولا ريب أن ذلك كان في نافلة؛ إذ الفريضة كان النبي صلى الله عليه وسلم يصلبها جماعة في المسجد. وبدل على أنه لم يكن يصلي بهم المكتوبة ما رواه مسلم عن أنس، قال: دَخَلَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عَلَيْنَا، وَمَا هُوَ إِلَّا أَنَا، وَأُمِّي وَأُمُّ خَزَامٍ خَالَئِي، فَقَالَ: "فُؤُومُوا فَلَأُصَلِّيَ بِكُمْ" فِي غَيْرِ وَقْتِ صَلَاةٍ، قَصَلَى بِتَا... الحديث.

الصحيح رأي جمهور العلماء، وقد فعله كثير من الصحابة رضي الله عنه، منهم عمر وابن مسعود وابن الزبير وغيرهم:

فقد أخرج مالك عن عبد الله بن عتبة قال: دخلت على عمر بن الخطاب رضي الله عنه وهو يصلي في الهاجرة (وهي نصف النهار قبل الظهر أو بعده) تطوعًا- في رواية: فوجدته يسبح (أي يصلي نافلة)- فأقامني حذوه عن يمينه، فلم يزل كذلك حتى دخل بَرَقًا مولاه فتأخرت، فصفقنا خلف عمر رضي الله عنه.

وعن أبي عبيدة بن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه قال: دخلت مع أبي المسجد، والناس صفوف في صلاة الصبح، فحتس دونهم فأقامني عن يمينه، فصلى ركعتين، ثم لحق بالصف.

وعن هشام بن عروة قال: رأيت عبد الله بن الزبير رضي الله عنه يؤمهم في المسجد الحرام بالنوافل، ووراءه شيوخ من أهل الفقه والصلاح، يرون أن ذلك حسن.

قال هشام: إن الإمام كان يؤمهم في المكتوبة، ثم يدخل الدار فيسبح (أي يتنفل) ويسبحون بصلاته، وهو يؤمهم.

فهذه الأحاديث والآثار كلها وغيرها دالة على مشروعية صلاة النوافل في جماعة في غير رمضان، وبخاصة في مثل هذه الأيام المباركة التي يضاعف فيها الأجر، ويغفل عنها كثير من الناس.

ولا بأس بالاعتكاف بعض هذه الأيام في المسجد، أو حتى اعتكاف بعض الساعات، فقد أخرج عبد الرزاق عن يعلى بن أمية قال: "إني لأمكث في المسجد الساعة، وما أمكث إلا لأعتكف".

أخرج عن عطاء قال: "هو اعتكاف ما مكث فيه، وإن جلس في المسجد احتساب الخير فهو معتكف، وإلا فلا". فمن تيسر له قضاء بعض الوقت أو الجلوس بضع ساعات في المسجد فليستحضر نية الاعتكاف، والله نسأل أن يوفقنا جميعًا لما يحبه ويرضاه.

نستكمل في المرة القادمة أين أنت من أيام العشر؟

* أستاذ الحديث وعلومه بجامعة الأزهر الشريف.